بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 30 يوليو 2016

سلامة موسى:
رائد الاشتراكية التقدمية في الفكر العربي المعاصر

مصطفى النشار
باحث مصري

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

الملخص:

يتمتع سلامة موسى بين مفكري عصر النهضة العربية بمكانة خاصة حيث تميز عن معاصريه بأنّه ذلك المفكر القبطي الذي جمع بين ليبرالية التوجه واشتراكية المذهب، هو ذلك المفكر المصري حتى النخاع المدرك لعبقرية الحضارة المصرية القديمة إلى درجة أن أصبحت النزعة الفرعونية من أهم الملامح في فكره التنويري، وهو ذلك المفكر العربي الذي دعا إلى الاهتمام باللغة العربية باعتبارها اللغة القومية وإن كان في ذات الوقت قد دعا إلى استخدام العامية واعتمادها، ولم يمنعه هذا وذاك عن الحديث عن إمكانية كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية واعتبر ذلك «وثبة نحو المستقبل». إنّه المفكر صاحب العقلية العلمية النقدية، شديدة الجرأة والتوهج، وصاحب القلم الثوري الذي لم يتوقف يومًا عن النقد، نقد كل صور التخلف فكرية كانت أو اجتماعية، سياسية كانت أو اقتصادية. ولم يكن النقد بغرض التفنيد والهدم، بل بغرض البناء والتقدم.

ولعل الحديث عن حياته يوضح لنا فيما يلي تعدد مصادر فكره، ويكشف لنا عن طبيعة تطوره الفكري وملامح هذا الفكر التنويري وكيف جمع فيه بين الليبرالية والاشتراكية في آن واحد، وبين المصرية الفرعونية وقيم الفكر الغربي الحديث؟!

أولاً: حياته وتطوره الفكري[1]:

ولد سلامة في إحدى قرى الزقازيق من أعمال مديرية الشرقية لأسرة قبطية ميسورة الحال، حيث كان والده يعمل موظفًا بمديرية الشرقية بمرتب سبع جنيهات ونصف ومع ذلك فقد ترك لأبنائه بعد وفاته – كما يروي سلامة موسى نفسه – أكثر من مائة فدان، وقد توفي هذا الوالد بعد عامين فقط من ميلاد ابنه، لكن هذه الثروة ساعدته على أن يتلقى تعليمه متدرجًا بين الشرقية والقاهرة ثم أوربا بعد ذلك.

ويمكن أن نقسم حياته إلى ثلاث مراحل؛ المرحلة الأولى هي مرحلة النشأة والتلمذة، حيث ولد في الرابع من فبراير عام 1887م وهناك رواية أخرى أنّه ولد في يناير في ذات العام، وكان أصغر إخوته الخمسة حيث كان له أربع أخوات بنات وأخ واحد. وقد تلقى تعليمه بداية في إحدى المدارس القبطية ثم التحق بعد ذلك بالمدرسة الابتدائية بالزقازيق حتى حصل على الشهادة الابتدائية. ويروي سلامة موسى أنّ مدرسي المدرسة كان من بينهم المصريون والإنجليز، وبينما كانت معاملة المدرسين المصريين للتلاميذ جيدة، كانت معاملة الإنجليز لهم فيها غطرسة وعقاب شديدان. وقد تركت هذه الفترة بصمات عديدة في فكر سلامة موسى حيث الطبيعة الريفية الخلابة بما فيها من انطلاقه وركوب الحمير والخيل ونزول الترع وسهر الليالي القمرية وخاصة في الصيف، وقد انتقل بعد ذلك إلى القاهرة حيث واصل دراسته الثانوية في المدرسة التوفيقية ثم الخديوية، وكان ناظر المدرسة يدعى شارمان، والطريف أنّه هو الآخر كان يتلذذ بتعذيب التلاميذ المصريين هو ورفاقه من المدرسين الإنجليز. ولم تكن الحياة في القاهرة في تلك الأيام تختلف كثيرًا عن حياة الريف باستثناء وجود السيارات إلى جانب الحمير والبغال. وقد عاصر سلامة موسى في هذه الفترة كيف كان المصريون بقيادة الحزب الوطني يقاومون المحتل بزعامة مصطفى كامل وأحمد لطفي السيد ومحمد فريد. وفي الوقت ذاته ازدهرت حركة تحرير المرأة على يد قاسم أمين، لكنه أصيب بإحباط كبير بعد حادثة دنشواي لدرجة أنّه امتنع عن الطعام يومًا كاملاً وأحس بكره شديد ناحية الإنجليز. ومع ذلك فقد تسببت هذه الحادثة في تأجيج الوحدة الوطنية «اتحد الشعب بمسلميه ومسيحييه ضد الإنجليز. وقد تعرف سلامة موسى على الجو الثقافي في القاهرة من خلال مجلة المقتطف التي كان يصدرها يعقوب صنوع ومجلة الجامعة التي كانت نافذته على الأدب والفكر الغربي. وقد انتهت هذه المرحلة بحصوله على شهادة البكالوريا (الثانوية) عام 1903م.

أما المرحلة الثانية من حياته فهي المرحلة الغربية حيث سافر إلى أوربا عام 1906م وكان آنذاك في عمر التاسعة عشرة. وقد توجه في البداية إلى فرنسا حيث قضى هناك ثلاث سنوات ثم انتقل إلى انجلترا

1 نعرض لحياة سلامة موسى وتطورها عمومًا من هذين الموقعين على شبكة المعلومات:

http://arwikipedia.org/wiki/ سلامة موسى

tile://C:/users/HP/doucuments/ كتب سلامة موسى / سلامة موسى

قاصدًا دراسة الحقوق لكنه قضى فيها أربع سنوات دون أن يستكمل هذه الدراسة حيث انصرف عنها إلى القراءة الحرة وانضم إلى جمعية العقليين والجمعية الفابية. وقد كتب هناك تحت التأثير المباشر لهاتين الجمعيتين كتابه الأول «مقدمة السوبرمان» وذلك عام 1909م وقد نشره جورجي زيدان بدار الهلال عام 1910م. ولم يقتصر تأثير هذه الفترة في فكره على إخراج هذا الكتاب فقط، بل أثرت لقاءاته بالمفكر الإيرلندي الشهير والكاتب المسرحي القدير برنارد شو، وكذلك اهتمامه بقراءة مؤلفاته تشارلز داروين حول نظرية النشوء والارتقاء، أثرت فيه تأثيرًا بالغًا حيث بدا ذلك التأثير في معظم كتاباته بعد ذلك حيث انطبع فكره بعلمية الاتجاه وإيمانه بنظرية التطور.

وقد لفت د. كمال عبداللطيف في دراسته عن سلامة موسى الانتباه إلى أنّ «الحدث الرئيسي في حياة سلامة موسى بعد سفره إلى أوربا هو انخراطه في الجمعية الفابية(*) حيث التقى بمفكرين سيتأثر بهما طيلة حياته هما برنارد شو وويلز»[2]، وقد قال سلامة موسى نفسه عنهما «ولقد كان من سعادتي أنّي جاريت هذين الاثنين من السنين العشر الأول من هذا القرن (يقصد القرن العشرين) إلى يوم وفاتهما ولم أكن أهمل حرفًا مما كتباه وإليهما أعزو نشأتي العلمية واتجاهي الاشتراكي الإنساني»[3]. ويجدر التنويه هنا أنّ سلامة موسى قد تعرف من خلال انضمامه لهذه الجمعية على داروين وسبنسر وبنتام وشوبنهاور ونيتشه وهم أبرز فلاسفة العالم آنذاك، وهم على ما بينهم من اختلافات فكرية قد أثروا بشكل أو بآخر في سلامة موسى. ولم يكن سلامة موسى ممن يتوقفون عن التأثر باتجاه فكري معين أو بفيلسوف معين، فبعد ذلك بفترة وفي حوالي العشرينات من القرن نفسه تعرف على ماركس وفرويد وسارتر على ما بينهم أيضًا من اختلافات فكرية، في الوقت الذي تعرف فيه على فكر غاندي الزعيم الهندي الكبير وتجربته في التحرر الوطني وهو ما جعله ينشر كتابًا عام 1934م تحت عنوان «غاندي والحركة الهندية»[4].

ومع كل هذا الكمّ الفكري الذي عايشه سلامة موسى في أوربا، فقد عاد إلى مصر محملاً بهذه الأفكار والاتجاهات الفكرية الأوربية والشرقية معًا، وإن كان تأثره بالفابية والاشتراكية كان الأقوى حيث بمجرد عودته أصدر أول كتاب عن الاشتراكية في العالم العربي عام 1912م، وأصدر هو وشبلي شميل صحيفة أسبوعية تعتني بهذا الفكر اسمها «المستقبل» 1914م وإن كانت للأسف لم تستمر طويلاً حيث أغلقت بعد ستة عشر عددًا فقط، وأسس هو والمؤرخ محمد عبدالله عنان حزبًا جديدًا أطلق عليه اسم «الحزب الاشتراكي المصري» عام 1921م. والطريف أنّه قد انسحب منه رافضًا الخضوع لأي قيود تنظيمية؛ وذلك على إثر

2(*) الجمعية الفابية هي جمعية إصلاحية أسسها عام 1884 فريق من المثقفين البرجوازيين في إنجلترا وأطلقوا عليها اسم القائد الروماني فابيوس المماطل الذي اشتهر بخطة الانتظار وتجنب المعارك الفاصلة، ويعتبر الفابيون أنّ الانتقال إلى الاشتراكية يتم عن طريق الإصلاحات المتدرجة.

د. كمال عبد اللطيف، سلامة موسى وإشكالية النهضة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة 2009م، ص 119

3 سلامة موسى، تربية سلامة موسى، سلامة موسى للنشر والتوزيع بالقاهرة 1947م، ص9، نقلاً عن: د. كمال عبد اللطيف، المرجع السابق، ص 119

4 د. كمال عبد اللطيف، المرجع نفسه، ص ص 119-120

خلافات كانت قد أثارتها انتقاداته لثورة أكتوبر. واكتفى بعد ذلك بالنشاط الفكري حيث رأس مجلة الهلال عام 1923م واستمر في ذلك حتى عام 1929م، وأسس بعد ذلك وفي العام نفسه «المجلة الجديدة»، وأسس المجمع المصري للثقافة العلمية عام 1930م، وكان يهدف من خلالهما إلى نشر الثقافة العلمية وتغليب الاتجاهات العلمية على الثقافة العربية. وربما لم يجد ذلك هوًى من الحكومة المصرية آنذاك حيث أغلقت حكومة صدقي باشا هذا المجمع، فرد سلامة موسى على ذلك فيما يبدو بتكوين جمعية «المصري للمصري» وهي ذات طابع سياسي حيث نادت هذه الجمعية بمقاطعة البضائع الإنجليزية مستلهمة تجربة المهاتما غاندي في الهند. لكن هذه الجمعية حوربت هي الأخرى من قبل الحكومة، وقد رد سلامة موسى على ذلك أيضًا بأن كتب كتابًا عن غاندي والحركة الوطنية الهندية.

وقد نشط سلامة موسى في مجال التأليف الفلسفي لينشر أفكاره التنويرية وليحمس المصريين للثورة على الاحتلال مذكرًا بثورة عرابي؛ فكتب عن «مصر أصل الحضارة»، وترجم كتاب بلنت «التاريخ السري للاحتلال البريطاني». وألف أيضًا كتبًا عن «حرية الفكر وتاريخ أبطالها» و»حرية العقل في مصر» إلى جانب استمراره في كتابة مؤلفاته ومقالاته التنويرية. واصل سلامة موسى كفاحه ضد الحكم الملكي وضد الاحتلال والدعوة إلى مصر للمصريين، وقد ترتب على ذلك اعتقاله في 12 يوليو 1946م في سجن الأزبكية ووضع في زنزانة مظلمة مع المجرمين وقطاع الطرق بتهمة أنّه يروج للشيوعية والحكم الجمهوري، وتم القبض عليه واعتقاله مرة أخرى في مايو 1947م وهو في حوالي الستين من عمره بتهمة رمي قنبلة على مبنى سينما في القاهرة.

وبالطبع لم يكن كل ذلك استثناءً في ظل فساد الحكومات والملكية في السنوات القليلة التي سبقت قيام ثورة يوليو 1952م؛ حيث «كان فساد الحكم قبيل خلع الشقي فاروق قد بلغ أقصاه وكانت السراي تستخدم كل من شاءت من الموظفين وخاصة الجواسيس لتعقب جميع الذين تشتبه في سلوكهم نحوها» كما كتب سلامة موسى نفسه. وكم كانت سعادته بقيام هذه الثورة التي رحب بها واعتبر «أنّ يوم خلع فاروق كان يوم التهاني» الذي شارك فيه وتلقى فيه المهنئين سواء بالمصافحة في الطرقات أو باستقبالهم في بيته حيث كانوا يقدمون الشربات.

لقد ظل سلامة موسى مرحبًا بهذه الثورة وبإنجازاتها حتى مماته وها هو يكتب قائلاً: «ها أنا ذا في سنة 1957م أجد الجمهورية التي اتهمت بالدعوة إليها وحبست من أجل ذلك في 1946م، وأجد تجلي دعوتي للصناعة وهي دعوة أمضيت فيها أكثر من 30 سنة، وأجد دعوتي للعلم كما أجد الإيمان بنظرية التطور، وأخيرًا أجد تهمتي بأني أحب دولة الاتحاد السوفيتي، هذه التهمة قد أصبحت فخرًا بعد أن عرفنا وعايشنا

موقفهم نحونا في هجوم فرنسا وبريطانيا وإسرائيل علينا في 1956م وأجد مصريًا صحيحًا على رأس حكومتنا هو جمال عبدالناصر»[5].

إذن لقد رأى سلامة موسى في قيام ثورة 23 يوليو 1952م تحقيقًا لكل أفكاره في عودة مصر للمصريين وانحيازها لتطبيق الاشتراكية وتقربها من الاتحاد السوفيتي الذي كان يتزعم المعسكر الاشتراكي في العالم آنذاك. وقد وافته المنية في عام 1958م ولا تزال جذوة الثورة الاشتراكية تفعل فعلها في نقل مصر من حال إلى حال وكانت سنوات العزة والفخار بالإنجازات الثورية تثير فيه الرضا حيث أنّ جل أفكاره قد أخذت طريقها إلى التطبيق. وبالطبع فلم يقدر له بالطبع أن يشهد ما ستؤول إليه أمور الثورة المصرية بعد ذلك من هزائم وانكسارات بعدما حققت النقلة الاجتماعية والسياسية والنهضة العلمية والصناعية التي كان يحلم بها وأصبحت واقعًا شاهده قبل مماته كما قلنا عام 1958م؛ وقد كانت وفاته في الرابع من أغسطس عن عمر ناهز الواحد وسبعين عامًا.

ثانيًا: مؤلفاته:

ولقد أغنى سلامة موسى الحياة الفكرية المصرية بحوالي أربعين مؤلفًا لعل أهمها: مقدمة السوبرمان (1910م)، الاشتراكية (1913م)، أحلام الفلاسفة (1926)، حرية الفكر وأبطالها في التاريخ (1927م)، اليوم والغد (1927م)، نظرية التطور وأصل الإنسان (1928م)، غاندي والحركة الهندية (1934م)، النهضة الأوربية (134م)، ما هي النهضة (1935م)، مصر أصل الحضارة (1935م)، الشخصية الناجحة (1942م)، حرية العقل في مصر (1945م)، البلاغة العصرية واللغة العربية (1945م)، التثقيف الذاتي (1946م)، عقلي وعقلك (1947م)، تربية سلامة موسى (1947م)، الحب في التاريخ (1947م)، الأدب الإنجليزي الحديث (1948)، طريق المجد للشباب (1949م)، أسرار النفس (1951م)، فن الحب والحياة (1953م)، هؤلاء علموني (1953م)، كتاب الثورات (1954م)، برنارد شو (1957م)، الأدب والحياة (1957م)، أحاديث إلى الشباب (1957م)، مقالات ممنوعة (1959م)، انتصارات إنسان (1960م)، الإنسان قمة التطور (1961م)، افتحوا لها الباب (1962م)، الصحافة حرفة ورسالة (1963م).

ولعلنا نلاحظ في هذه القائمة التنوع الكبير لاهتمامات سلامة موسى التي تراوحت بين الفلسفة والعلم والفن والأدب والتاريخ وعلم النفس، ونلاحظ أيضًا أنّ بعضها نشر بعد وفاته مما يعكس الاهتمام بنشر كل ما خطه قلمه من قبل محبيه وتلاميذه. وقد لقي سلامة موسى من المثقفين المصريين العرب اهتمامًا واسعًا حيث كتبت عنه عدة مؤلفات فضلاً عن عشرات بل مئات المقالات والدراسات التي تُخلِد فكره وتحمد فضله، فقد

5 سلامة موسى، تربية سلامة موسى، ص 312، نقلاً عن كمال عبد اللطيف، المرجع السابق نفسه، هامش ص 250

كتب محمود الشرقاوي عن «سلامة موسى المفكر والإنسان»، وكتب فتحي خليل «سلامة موسى وعصر القلق»، وكتب هنري رياض «سلامة موسى والمنهج الاشتراكي»، وكتب محمد عشماوي «سلامة موسى والماركسية»، وكتب سيد عشماوي «موقع سلامة موسى من الحركة الاشتراكية في مصر»، وكتب كمال عبداللطيف «سلامة موسى وإشكالية النهضة».

ثالثًا: رؤيته الفكرية العامة:

اتسم فكر سلامة موسى منذ بداياته بعدة سمات لعل أهمها:

1) النزعة العقلية العلمانية:

لقد كان سلامة موسى مقتنعًا اقتناعًا كاملاً لم يتزعزع بأنّ تحقيق أي نهضة في مجتمعنا العربي يستوجب بالضرورة تمثل الحضارة الغربية وقد قال في ذلك بوضوح «فلنول وجهنا شطر أوربا» ونجعل فلسفتنا وفق فلسفته»[6]، وهذا يعني من وجهة نظره اتخاذ العقلانية منهجًا ثابتًا لتناول أي مشكلة، وفي هذا الإطار رفض العديد من المقولات الدينية التي رأى فيها فكرًا غيبيًا. انظر إليه يقول «ليس للإنسان في هذا الكون ما يعتمد عليه سوى عقله وأن يأخذ مصيره بيده ويتسلط على القدر بدلاً من أن يخضع له». ومن هنا اعتبر مصدر الدين بشريًا وليس إلهيًا وجاء لمنفعة الإنسان وأنّ الإنسان صنع ظاهرة الدين منذ القبائل البدائية، بل ذهب إلى القول بأنّ الفلاسفة والأدباء يؤدون وظيفة النبي نفسها؛ فهم يطورون الفضائل في المجتمع، ويوجدون قيمًا بديلة للقيم الدينية تكون غايتها المجتمع وترقيه البشر إلى عصر جديد. ولقد مال في فكره إلى التبشير بدين جديد يرفض الغيبيات ويقوم على التوحيد الطبيعي بين المادة والقوة، بين الله والكون، بين العقل والجسم في وحدة واحدة. وبالطبع فقد فرق بين العلم والدين واعتبر أنّه يمكن للعلم أن يحل محل الدين في حياة الإنسان إذ «ليس للحياة غاية إلا الحياة، وكل ما عدا الحياة إنّما هي وسائل للحياة»[7].

وبالطبع فقد لاقى سلامة موسى جراء هذه الآراء العلمانية التي تقلل من شأن الغيبيات والعقائد الدينية انتقادات واسعة، فقد اتهمه الأديب مصطفى صادق الرافعي بأنّه «معاد للإسلام»، وشنّ عليه عباس محمود العقاد هجومًا واسعًا متهمًا إياه بأنّه «غير عربي». واعتبره آخرون للأسباب نفسها «صفحة يجب أن تطوى من تاريخنا الثقافي»[8]، وكأنّهم يريدون أن يمحوا اسمه من تاريخ الفكر المصري والعربي الحديث محوًا تامًا.

---

6 انظر سلامة موسى، اليوم والغد، المطبعة العصرية بالقاهرة 1927م، ص ص 241-257

7 نقلاً عن: Wikipedia.org/wiki سلامة موسى p.3

8 نفسه، p.5

2) النزعة المصرية (الفرعونية):

إنّ القارئ لإنتاج سلامة موسى يلاحظ مدى صدقه وإخلاصه لقضايا المجتمع المصري بدءًا من مقالاته ذات النزعة الفرعونية في بعض مراحل حياته وانتهاءً بمناداته أن يأخذ المصريون في لغتهم بالأحرف اللاتينية للاقتراب من اللغات الأوربية الحية. ونادى في الاتجاه نفسه في فترة من حياته بالأخذ باللغة العامية بدلاً من اللغة الفصحى لإنهاء الازدواج في اللغة عند المصريين. والحقيقة أنّ هذه الدعوات المتطرفة إلى الأخذ بالعامية وكتابة اللغة العربية بالأحرف اللاتينية إنّما كانت تعبر عن حماسته تجاه مصر باعتبار أنّ الفرعونية هي أساس انتماء المصريين، وربما لأنّ لغتهم العامية بها الكثير من الأصول الهيروغليفية التي تعود إلى الحقبة الفرعونية من تاريخ مصر. وعمومًا فإنّ هذه الدعاوى لم تكن إلا دعاوى مؤقتة في مسيرته الفكرية، وتمثل لحظات اندفاع تعكس هموم (وقلق) مثقف ينتمي إلى أقلية في المجتمع وإلى وسط اجتماعي محافظ ومغال في تمسكه بتقاليده. وعلى كل حال فإنّ سلامة موسى قد «تخلى عن هذه الدعاوى في فترات لاحقة من حياته»[9]، والثابت لدى مفكرنا كما قلنا في بداية هذه الفقرة أنّه كان شديد الإخلاص والقلق على مصر ويريد أن يدفع دفعًا نحو مستقبل أفضل متأسيًا بنهضة الأوربيين وعقلانيتهم وعلمانيتهم، ولقد ظل سلامة موسى طيلة حياته يحمل رسالة تدعو إلى تقدم المجتمع المصري وتطوره معتبرًا إياها أثمن وأغلى رسالة.

3) الدعوة إلى الاشتراكية المتدرجة:

لقد تأثر سلامة موسى بلاشك بالفكر الاشتراكي الماركسي خاصة أنّه انتمى في فترة من حياته كما قلنا إلى الجمعية الفابية البريطانية التي كانت تدعو إلى تحقيق الاشتراكية بالتدرج ودون عنف أو ثورة. وقد تأثر في ذلك بالطبع بكتابات الفيلسوف المؤسس لهذا الاتجاه كارل ماركس حيث اعتبره أكثر من تأثر بهم في حياته، كما تأثر بأفكار شبلي شميل وآرائه وهو أحد رواد الفكر الاشتراكي في العالم العربي. وعمومًا فلم يكن تشبثه بالفكر العلماني والدعوة إلى الاشتراكية بهذا التدرج والاعتدال إلا وسائل تساعد من وجهة نظره على تحقيق مجتمع تتقلص فيه الفوارق بين الطبقات وتزول فيه العوائق الاجتماعية الناشئة بسبب التناقضات الاجتماعية والسياسية والدينية. إنّ الهوية الواحدة للمجتمع لا تتحقق من وجهة نظره إلا في مجتمع لا يعطي أي اعتبار للعامل الديني حيث يصبح الجذر البشري هو الموحد الأول والأخير ويقصد بالجذر البشري هنا وحدة الطموح المدني العقلاني[10].

9 د. كمال عبد اللطيف، المرجع نفسه، ص 111

10 انظر: المرجع السابق نفسه، ص ص 111-112

رابعًا: أسس النهضة عند سلامة موسى:

وحينما يتأمل المرء سؤال سلامة موسى عن النهضة يجد أنّه يعرفها قائلاً: «إنّ النهضة ثراء وقوة وثقافة وصحة وشباب، ولكن قد يكون الثراء مؤلفًا من نقود زائفة كما قد تكون القوة والثقافة والصحة والشباب خداعًا وليس حقيقة»[11].

وما دامت النهضة «ثراء وقوة وثقافة وصحة وشباب» فهي لا يمكن أن تبنى على العودة إلى الوراء حيث لا يمكن أن تبنى حضارة جديدة بإحياء مظاهر حضارة قديمة؛ وقد ضرب سلامة موسى على ذلك مثلاً بما حاوله الملك المصري القديم أبسماتيك الذي حكم مصر فيما بين عامي 712 و666 ق.م وأسس الأسرة السادسة والعشرين، حيث أنّه بعد أن تغلب على الأعداء وأسس أسرته الجديدة للحكم فكر في كيفية العودة بمصر إلى مجدها القديم، وهداه تفكيره إلى أنّ ذلك لن يكون إلا بالرجوع إلى تراث هؤلاء الأسلاف العظام وتقاليدهم، فما كانت نتيجة تلك العودة إلى تلك المظاهر القديمة للحضارة المصرية القديمة في عصرها الأول إلا إفلاسًا حضاريًا حيث كانت الظروف غير الظروف ولم يكن ممكنًا العودة بمصر والمصريين نحو 2500 سنة إلى الوراء، لقد كانت نتيجة ذلك الإفلاس والإصرار إلى العودة إلى الوراء نجاح الأعداء من الآشوريين والفرس في اغتيال مصر واحتلالها[12]، ومن ثم ضاعت الحضارة المصرية وكانت أسرة أبسماتيك هي التي دقت المسمار الأخير في نعش استقلال مصر الحضاري ومجدها الذي استمر لآلاف السنوات قبله.

إنّ سلامة موسى يمقت عبارة «العودة إلى القديم»، فالنهضة تبدأ في رأيه من أن «نهزم القرون الوسطى في حياتنا»[13]. ولقد برهن على ذلك بسرد الكثير من حكايات النهضة الأوربية الحديثة وكيف كانت ثورة على القديم وخروجًا عن كل مألوف ألفه الأوربيون في قديم حياتهم طوال العصور الوسطى.

إنّ النهضة تبدأ إذن من هجر القديم هجرًا والتطلع إلى آفاق جديدة تواكب التطورات العلمية الحديثة، ولا يمكن للأمم أن تنهض إلا إذا تمتع أهلها بالحرية، ومن هنا فقد دافع سلامة موسى عن الحرية بمفهومها المعتدل الذي يربط بين الحرية والمنفعة؛ انظر إليه يقول «لا يبرر الحرية الفكرية إلا منفعتها، ولا يبرر تدخل الحكومة ومنعها للناس من حرية التفكير سوى حقها في الدفاع عن النفس وحماية الجمهور من أذى مباشر»[14].

11 سلامة موسى: ما هي النهضة، نشرة مكتبة الأسرة بالهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2002م، ص 3

12 انظر: المرجع السابق نفسه، ص ص 3-5

13 نفسه، ص 8

14 سلامة موسى: حرية الفكر - الجزء الثاني، منشورات مكتبة الأسرة بالهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1996م، ص 179

وقد ربط سلامة موسى بين دفاعه المعتدل عن حرية التفكير وبين ضرورة أن يتجنب الناس التعصب وذلك حتى يسود بينهم التسامح ويستشهد على ذلك بقول فولتير «يجب على الناس أن يتجنبوا التعصب حتى يستحقوا التسامح»[15]. ومن هنا دعا سلامة موسى إلى التسامح بين أصحاب الديانات وبين أتباع الديانة الواحدة، وبرهن على ذلك بقوله: «وقد تسألني الآن: هل يجب عليّ أن اعتبر التركي أو الصيني أو اليهودي أخًا لي؟! أقول: أجل. ألسنا كلنا أبناء أب واحد وخلائق رب واحد؟!»[16].

إذن فإنّ التسامح ونبذ التعصب من عوامل نهضة الأمم حيث أنّ من شأنها أن توحد الكل لتحقيق هدف النهوض، فلا يتنازعون ولا يتعصب أحدهم لدينه أو لطائفته. ومن عجب أن يشغل سلامة نفسه بدراسة أسباب التعصب حتى يدفعنا إلى التخلص منه، وقد رد هذه الأسباب إلى أربعة أسباب رئيسية هي:

1) أنّ الناس مطبوعون على الكسل والاستنامة إلى ما ألفوه من العادات الفكرية والعملية.

2) أنّ المصلحة المالية والمعاشية كثيرًا ما تكون متعلقة بالعادات المعروفة فتبديلها يضيع على بعض الطبقات هذه المصلحة.

3) الجهل، فالجاهل الذي يجهل نظرية التطور ويؤمن بأنّ أبا البشر آدم وأمهم حواء يكره كل من يقول بهذه النظرة الملعونة. ومن يجهل باللغات الأخرى من شيوخنا يكره كل من لا يقول بأنّ اللغة العربية أفصح اللغات وأشرفها ولا يمنعه من الاضطهاد إلا عجزه.

4) الخوف؛ فالعجوز قد تؤمن بالأولياء والقديسين وتتشفع بهم. ولا يمكن وهي في هذا الحال أن تطالبها بحرية المناقشة في ما يعزى إلى هؤلاء الأشخاص من الكرامات لأنّ خوفها يمنعها من أن تطلق لذهنها هذه الحرية[17].

وبالطبع فإن تخلص الناس من هذه الأسباب للتعصب سيجعلهم يتخلصون أيضًا من الخوف والجهل، وهو ما يجعلهم يشعرون أكثر فأكثر بحريتهم. وقد كان أكثر ما دعا إليه سلامة موسى من الحريات حرية التفكير وحرية الاعتقاد. ومن هنا فقد مدح مناخ الحرية الذي عاصره في مصر في عصره حينما اعتبر «مصر قد قدمت الحرية الفكرية في الشرق بمطبوعاتها وصحفها» وبما «نبغ فيها من كتاب يدعون إلى حرية البحث في الدين والعلم والأدب» واعتبر «أنّ أبعدهم أثرًا منذ بدء النهضة إلى عصره شبلي شميل وفرح أنطون، حيث كان الأول يجاهر بكفره ويسطو على رجال الدين مسلحًا بنظرية التطور، وكان الثاني

15 سلامة موسى: حرية الفكر وأبطالها في التاريخ، طبعة دار الهلال بمصر، بدون تاريخ، ص 177

16 نفسه، ص 176

17 نفسه، ص ص 15-17

أديبًا .. كتب عن نيتشه وعن الثورة الفرنسية وعن المسيح باعتباره رجلاً وعن الاضطهاد الديني وكان في تجديده للأدب العربي جريئًا مقدامًا يشق الميادين الجديدة»[18].

ولعل سائلاً يسأل هنا: ألا تتعارض دعوات سلامة موسى هنا لنبذ التعصب وضرورة التسامح والتمتع بالريادة مع دعوته للاشتراكية العلمية التي تناهض الدين وتقمع الحريات؟!

والحقيقة أنّه لا تناقض هنا عند سلامة موسى لأنّه يعتبر الدين مسألة مهمة جدًا لاستقرار الإنسان ويعد من عوامل دافعيته الحضارية، انظر إليه يقول: «ليس إنسان يستطيع أن يعيش بلا دين ما لم يكن أبله أو مغفلاً لأنّ الدين ليس في الحقيقة سوى استقرار الفرد على علاقة ما بينه وبين الكون أصله وغايته وما فيه من ناس وحيوان»[19]. وبالطبع فإنّ المقصود بالدين هنا هو الدين الطبيعي وليس فقط الأديان السماوية الثلاثة.

والطريف أنّ سلامة موسى الذي يمتدح أحلام الاشتراكية في القرنين التاسع عشر والعشرين يقول «إنّها كلها أحلام الآلات والعمال، وكلها تتجه بالطبع وجهة اشتراكية شأن جميع الأحلام الماضية ولكنها تمتاز عنها بالعناية بالعمال وبجعل الآلات أساسًا للهيئة الاجتماعية»[20]. هو نفسه الذي يقول مفضلاً الأديان على أحلام الفلاسفة والمفكرين؛ «أنّ الدين قبل أن يعد بطوبى العالم الآخر كان يطلب من الفرد أن يغير بالإيمان قلبه وأن تتبدل نفسه نفسًا أخرى هي نفس المؤمن المرتاح إلى إيمانه الراضي به بدلاً من نفسه السابقة، نفس الكافر الذي توسوس إليها الشكوك. وكان هذا الإيمان وحده كافيًا لأنّ ييسر على المؤمن كل تغيير يراه في طرق المعاش والاجتماع والزواج ونظام الحكومة وغير ذلك .. إنّ الدين كان يحاول تغيير المجتمع بعد أن يبلغ قلب الفرد فيغيره، بل يخلقه من جديد. وكان لذلك ينجح في تحقيق غرضه لأنّ تحقيق هذا الغرض هو الفرد فإذا لم يكن هو قد تغير فكيف تطلب منه أن يغير طرق مجتمعه»[21].

وأكد أنّ «الفرق بين الأديان وبين أحلام الفلاسفة؛ أنّ الأديان جعلت تبديل الوسط رهناً بتبديل الفرد فاستطاعت أن توجد هيئته الاجتماعية مسلمة أو مسيحية أو يهودية. ولكن طوبيات (يوتوبيات) الفلاسفة وخاصة في القرن التاسع عشر لم تبال بالفرد أقل مبالاة وإنّما عنيت بالوسط»[22].

---

18 سلامة موسى: حرية الفكر، نشرة مكتبة الأسرة، سبق ذكره، ص 178

وانظر على سبيل المثال فيما يتعلق بفرح أنطون روايته الأولى بعنوان «الدين والعلم والمال» التي جعل عنوانها الفرعي «المدن الثلاث» حيث تحدث عن كيف تتصارع قوى الدين والعلم والمال وكيف تتحول العلاقة بينها من علاقة سلام ووئام وحوار وتفاعل إلى علاقة تنابذ وقتال وصراع». (فرح أنطون: الدين العلم والمال، نشرت ضمن مهرجان القراءة للجميع عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1995م).

19 سلامة موسى: المرجع السابق نفسه، ص 139

20 سلامة موسى: أحلام الفلاسفة، سلامة موسى للنشر والتوزيع بالقاهرة 1926م، ص 59

21 نفسه، ص 93

22 نفسه.

والطريف أن يدرك سلامة موسى هذا الفرق بين الدعوة الدينية للتغيير من خلال الفرد وبين الدعوات الفلسفية الحالمة بالتغيير عن طريق تغيير الوسط الاجتماعي غير معتمدين أو بادئين من الفرد.

والأكثر طرافة أنّه وهو الداعي إلى الاشتراكية العلمية يفضل طريقة الدين في التغيير ويفضلها على طرق الفلاسفة الحالمين! وربما يكون ذلك نظرًا لأنّه يرى أنّ طوبى الأديان طوبيان؛ واحدة في العالم الآخر وهي ترمي إلى تغيير نفس المؤمن بوعده بالمكافأة؛ فإذا تغيرت النفوس وقبلت الإيمان لم تعارض في الطوبى الأرضية التي يرسمها الدين لنظام الحياة على الأرض[23].

خامسًا: دور الثقافة والفنون في النهضة:

وكما اهتم سلامة موسى بالتأكيد على دور القيم في نهضة الأمة، اهتم كذلك ببيان دور الثقافة والفنون. والحقيقة أنّ له وجهة نظر خاصة في التمييز بداية بين الثقافة والحضارة، فالثقافة لديه هي ما نتكون به، بينما الحضارة هي ما نعمل به؛ إذ «أنّ الثقافة علوم وفنون وفلسفات وعادات وتقاليد واتجاهات تكسبنا مزاجًا معينًا نتجه به في سيرتنا ومعاشنا ونؤسس بها مجتمعًا يتفق ومبادئ هذه المعارف ولا يتنافر معها. أما الحضارة فهي ما نعمل به من أدوات سواء أكانت هذه الأدوات حسية مثل آنية الطبخ أو مواد بناء أو آلات ومصنوعات أم كانت معنوية مثل المؤسسات الاجتماعية المختلفة كالحكومة والمجلس النيابي والمجلس البلدي ونظام الإدارة وجباية الضرائب ونحو ذلك»[24].

وقد اعتبر سلامة موسى «أنّ الثقافة تسبق الحضارة وتؤدي إليها فإنّها هي بمثابة الفكرة والحضارة بمثابة المادة»[25].

ومع اختلافنا مع مفكرنا في النظر إلى الحضارة هذه النظرة المادية لأنّها في اعتقادنا أقرب إلى الثقافة، إذ أنّ كليهما يعبر عنهما المصطلح الإنجليزي culture. بينما الجانب المادي من الحضارة هو ما ندعوه «مدنية» وهو يتمثل في تلك المظاهر المدنية المختلفة التي يبدو فيها بوضوح الجانب التقني من إبداعات الإنسان المادية.

أقول مع اختلافنا معه في ذلك، فإنّ الثقافة بالفعل تمثل مرآة تحضر أي أمة ويقاس بها درجة تقدمها، بل هي كما قال تمامًا التي تسبق الحضارة وتؤدي إليها لأنّ الثقافة تمثل الفكرة التي إن صلحت وصادفت لحظتها التاريخية المناسبة فإنّها تقود أصحابها إلى الانتقال من حال التخلف والجمود إلى حال التحضر والتقدم.

23 نفسه، ص 95

24 سلامة موسى: ما هي النهضة؟ سبقت الإشارة إليه، ص 95

25 نفسه.

وعلى أي حال فقد اعتبر سلامة موسى الفنون مكونًا رئيسيًا من مكونات الثقافة، وربما هذا ما قاده إلى الاهتمام بالفن وتاريخه لدرجة أن يؤلف كتابًا عن «تاريخ الفنون» ويضمنه صورًا لمجموعة من الصور والرسوم المشهورة في أوربا والعالم. وهو يعترف في بدايته بأنّه قد اقتبسه عن كتاب السير وليم أوربن «خلاصة الفن»، واعتبر أنّه إنّما قدم ملخصًا لهذا الكتاب[26].

يرى سلامى موسى «أنّ غاية الفنون الجميلة (الموسيقى، الشعر، النثر، البناء، الرسم، النحت، الغناء، الرقص والتمثيل) هو الجمال، والجمال ليس شيئًا موضوعيًا له حقيقة أصيلة في الكائنات التي حولنا من حي وجماد وإنّما هو ذاتي في أذهاننا؛ فالعالم أو الكون نفسه ليس جميلاً أو قبيحًا وإنّما الجمال والقبح اعتباران ذهنيان أي قائمان في أذهاننا فقط»[27]. ولعل ذلك هو ما يجعل الإنسان يقبل على ممارسة الفنون الجميلة إذ «أنّنا لا نجد في الطبيعة ما يرضينا ولا نجد في مواد الصناعة ما تشتهيه نفوسنا من الجمال»؛ «فلو كنا نأكل أو نشرب في صحاف من ذهب لما احتجنا إلى زخرفتها، ولكن المواد التي نصنع بها أدوات الطعام والشراب ليست جميلة فنحن نجملها بالفنون. ولو كانت الأحجار التي نبني بها منازلنا حسنة تمتع العين برؤيتها لما احتجنا أن نكسوها بالطلاء ونجملها بالرسوم ... ولو كان في حفيف الشجر وحفيف الرياح وتغريد الطيور ما يقنعنا ويستهوي أفئدتنا لما احتجنا إلى فن الموسيقى ... الخ»[28].

وبالطبع فهذا التبرير لأهمية الفنون الجميلة التي أبدعها الإنسان لا يعني أنّ الإنسان لم يتعلم من الطبيعة ولا يعترف بجمالها؛ فكل ما هنالك أنّ مفكرنا أراد أن يعبر عن أنّ «رجل الفن لا يقتصر على محاكاة الطبيعة» إذ أنّه «يتجاوز حقيقتها إلى خياله ويتسامى بها إلى أرفع ما تلهمه إليه بصيرته»[29].

إنّ الجمال - من وجهة نظر مفكرنا - في أشكاله المختلفة لا يختلف فيه الناس إلا بمقدار تربيتهم الفنية التي تزيد البصيرة الطبيعية نورًا وتورثهم هذا الذوق الذي نراه على أكمل وجه لدى الفنان. ومن هنا فإنّ «الأمم تتفاوت في النزعة التي تنزعها نحو الجمال؛ فقد كانت النزعة السائدة عند المصريين القدماء هي الدين فكان التمثال إذا نحت تمثالاً قصد فيه إلى معنى الخلود والهدوء الديني، وكان الإغريق القدماء ينزعون إلى الجمال الذي عبدوه في أشخاص آلهتهم وأبطالهم وفي رياضتهم وألعابهم»[30].

وقد ارتبطت النزعات الجمالية عند الشعوب والأمم بصور معينة للسعادة في حياتهم فيما يرى مفكرنا ويدلل على ذلك ببيان أنك لو سألت إغريقيًا مثل أرسطو: ما أسعد الناس؟ لأجابنا بأنّ الرجل السعيد يجب أن

26 سلامة موسى: تاريخ الفنون وأشهر الصور، صدر عن وزارة الثقافة والفنون والتراث القطرية (كتاب مجلة الدوحة)، دولة قطر 2015م، ص 5

27 نفسه، ص 9

28 نفسه، ص 12

29 نفسه، ص 17

30 نفسه، ص ص 25-26

يكون جميلاً وذلك لأنّه وهم (أي الإغريق القدامى) قد انغمسوا في الفنون ولابسوها في معيشتهم ورياضتهم حتى صاروا يعتقدون باستحالة السعادة إذا لم تقرن بالجمال. وإنّك إن سألت السؤال نفسه للمصري القديم لأجابك أنّ الرجل السعيد هو الذي ترضى عنه الآلهة، بينما الروماني يرى السعادة في كثرة العبيد ووفرة المساكن، أما نحن الآن فنكاد لا نتخيل السعادة إلا مقرونة بالثروة[31].

خاتمة:

لعلنا مما سبق ندرك مدى تأرجح سلامة موسى بين نزعته التغريبية العقلانية العلمية الاشتراكية بجفافها وماديتها، وبين نزعة فنية ليبرالية تنظر إلى داخل الإنسان كما نظرت في عالمه الخارجي. وقد صدق تعبيره هو نفسه عن ذلك حينما قال في مقدمة كتابه «أحلام الفلاسفة»: «لكل منا حياتان، حياة الواقع التي يعيشها الإنسان متأثرًا بالوسط الزماني والمكاني، وحياة الخيال التي يرغب في أن يعيشها. والفرق بين الحياتين هو الفرق بين الوجود الناقص وبين التخيل الكامل أو بين ما هو موجود على الرغم منّا وبين ما يجب أن يوجد وفق خيالنا وطبق رغباتنا»[32].

ومع ذلك فإنّه يمكننا في النهاية أن نتبين ملامح هذه الليبرالية الجديدة التي يدعو إليها، تلك الليبرالية المتمثلة في تحمسه ودفاعه عن مبادئ الفكر الاشتراكي الفابي، فالمشروع الثقافي الموسوي يرتكز في النهاية على مبدأين رئيسيين هما:

1) موقفه الرافض للماضي المتمثل في رفضه للمقولة التي شاعت بين السلفيين في كل عصر «عودوا إلى القدماء».

2) محاولة تأسيس خطاب متغرب ومفتوح، خطاب مرتكز على أساس علماني ونزعة اشتراكية حالمة[33].

ولعل الهدف الأهم الذي نجح سلامة موسى في تحقيقه في حقل الممارسة الفكرية العربية المعاصرة يتمثل في أنّه أسس بالفعل لما أطلق عليه كمال عبداللطيف بحق «الجبهة الثقافية النقدية» التي مارست دورها بالتركيز على النواحي الثقافية ومارست في إطارها صياغة رؤية بديلة للفكر المهيمن والواقع المتأخر[34].

---

31 نفسه، ص ص 26-27

32 سلامة موسى، أحلام الفلاسفة، سبقت الإشارة إليه، ص 7

33 انظر: د. كمال عبد اللطيف، المرجع السابق نفسه، ص ص 254-255

34 نفسه.

لقد كان الفكر جامدًا والواقع الثقافي يعاني التأخر وحينما جاء سلامة موسى بثقافته التغريبية المتحمسة المدافعة عن القيم الثقافية الغربية أعمل فيها معوله النقدي فهز الكثير من الثوابت، فكأنّه ألقى بحجر في مياه كانت راكدة، ومن ثم فقد مارس في الفكر العربي المعاصر دورًا تنويريًا نقديًا يشبه دور فولتير في الثقافة الغربية الحداثية.

مسرد المراجع

باللغة العربية:

- سلامة موسى: أحلام الفلاسفة، سلامة موسى للنشر والتوزيع بالقاهرة 1926م.
- سلامة موسى: تاريخ الفنون وأشهر الصور، صدر عن وزارة الثقافة والفنون والتراث القطرية (كتاب مجلة الدوحة)، دولة قطر 2015م.
- سلامة موسى: حرية الفكر - الجزء الثاني، منشورات مكتبة الأسرة بالهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1996م.
- سلامة موسى: حرية الفكر وأبطالها في التاريخ، طبعة دار الهلال بمصر، بدون تاريخ.
- سلامة موسى: ما هي النهضة، نشرة مكتبة الأسرة بالهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2002م.
- سلامة موسى، تربية سلامة موسى، سلامة موسى للنشر والتوزيع بالقاهرة 1947م.
- سلامة موسى، اليوم والغد، المطبعة العصرية بالقاهرة 1927م.
- فرح أنطون: الدين العلم والمال، نشرت ضمن مهرجان القراءة للجميع عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1995م.
- كمال عبد اللطيف، سلامة موسى وإشكالية النهضة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة 2009م.

المواقع الالكترونية:

http://ar.wikipedia.org/wiki/

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2016

جميع الحقوق محفوظة © 2016